آسيا جبار من أقاليم اللغة إلى أقانيم الهويّة

أ. شهرة بلغول

جامعة عنابة

الملخص

شكّلت مسألة الكتابة بلغة الآخر قضيّة محوريّة في حقل الدراسات المتعلقة بالأدب الجزائري الذي يتوسّل اللغة الفرنسيّة أداة للتعبير، ويعود الأمر إلى كون اللغة جزءا من المكون الثقافي الذي لا يمكن إغفاله في تحديد معالم الهويّة الوطنيّة. وعند الحديث عن هذا الأدب تبرز آسيا جبّار بوصفها الصوت النسائي الذي استمرّ منذ الثورة الجزائريّة إلى بدايات هذا القرن ويعد اعتمادها على اللغة الفرنسيّة كلغة للكتابة فعلاً محايداً في كتاباتها الأولى بالنظر إلى كونها اللغة الوحيدة التي تمتلكها.

تحيل اللغة الفرنسيّة كذلك على البعد الاستعماري إذ تستدعي في الذاكرة عذابات الشعب الجزائري في مواجهة هذا العدو، لكنّها وفي الوقت ذاته وسيلة لتحرر المرأة من فضاء الحريم الضيق، حين تمكّنها من تعرية الواقع وكشف التابوهات في مجتمع تتعدد فيه مستويات الحجب.

بالمقابل لم تستطع هذه اللغة أن تستجيب لكل احتياجاتها، إذ أصبحت لغة الفكر والأوساط الاجتماعيّة إلاّ أنّها ظلّت عاجزة عن دخول عوالم الكاتبة الأكثر حميميّة. لقد استعادت الكاتبة صدى اللغة الأم من خلال بعث تقاليدها المتمثّلة في البعد الشفوي والاستناد إلى الذاكرة الجماعيّة للنساء، حيث آثرت الإنصات إلى صوت المرأة في فضاءاتها الخاصة.

الكلمات المفتاحيّة: اللغة الفرنسية– المحلّيّة– الحكي الشفويّ– الكتابة– الذاكرة النسويّة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

résumé

L'écriture par la langue de l'autre forme une question axiale dans le champs des études liées à la littérature algérienne, qui supplie la langue française comme outil d'expression. Et ça dépend de la langue qui représente une partie de la composante culturelle non-négligeable pour déterminer les repères de l'identité nationale.

Et quand on parle de cette littérature, Assia DJEBBAR apparait en tant qu'une voix femelle qui a continué depuis la révolution algérienne jusqu'aux débuts de ce siècle et on considère son adoption da la langue française, en tant qu' une seule langue d'écriture, un acte neutre dans ses premières écritures car c'était la seule langue qu'elle a eu.

La langue française nous réfère à la dimension coloniale, et évoque à la mémoire les tourments du peuple algérien en affrontant cet ennemi mais aussi elle est un moyen pour libérer la femme de l'espace étroit de « les femmes : harim » en déshabillant la réalité et détectant les tabous dans une société en multiple niveaux de couverture.

Dans l'autre coté, cette langue était incapable de répondre à tous ses besoins, et malgré elle a devenu langue de pensée et des milieux sociaux, mais elle ne pouvait pas accéder les mondes les plus intimes de l'auteur.

Cette dernière a récupéré l'écho de sa langue maternelle par l'incarnation de ses traditions représentées par le coté oral en se basant à la mémoire collective des femmes, et elle a préféré l'écoute à la voix de la femme dans ses propres espaces.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

تمهيد:

شكّلت مسألة الكتابة بلغة المستعمر قضيّة محوريّة في حقل الدراسات المتعلقة بالأدب الجزائري الذي يتوسّل اللغة الفرنسيّة أداة للتعبير، ويعود الأمر إلى كون اللغة جزءا من المكون الثقافي الذي لا يمكن إغفاله في تحديد معالم الهويّة الوطنيّة، بل يذهب الكثير من الدارسين إلى عدّها ذلك المعمار الخفي الذي يتشيد به الفكر والمنظار الذي يرى الفرد من خلاله العالم من حوله، وفي هذا الصدد يقول الفيلسوف الألماني هيدغرHeidegger: "إن لغتي هي مسكني، هي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع"[1].لذا فهي القلعة الحصينة للذود عن الهوية وزوالها إيذان بطمس المعالم الثقافية الخاصة ومؤشر على الانسلاخ والانصهار في الآخر.

لقد تباينت المواقف من الكتّاب الفرانكفونيين حد التناقض، إذ يرى البعض أن خيار الكتابة بلغة الآخر يعتبر شكلاً من أشكال التبعية الإيديولوجية، ذلك أن اللغة ليست مجرد قوالب جاهزة وإنّما هي منظومة قيم تتجلى في شكل مادي، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا الآخر هو المستعمر اكتسبت هذه اللغة أبعاد القمع الرمزي.

يهدد هذا الوضع فئة من الكتاب بفقدان موطئ أقدامهم في بلدانهم ويجعلهم مهمشين من طرف الجماعة التي ينتمون إليها [2]، كيف لا وقد بات سؤال الهوية مطروحا بشدة نتيجة ما تواجهه اللغة القومية من تهديد حضاري في ظل الغزو الثقافي ومظاهر العولمة.

لعل هذا ما أشار إليه أمين معلوف في كتابه "الهويات القاتلة" بقوله: "فحيث يشعر الناس أنهم مهددون في عقيدتهم يبدو أن الانتماء الديني هو الذي يختزل هويتهم ولكن لو كانت لغتهم الأم ومجموعتهم الإثنية هي المهددة لقاتلوا بعنف ضد أخوتهم في الدين"[3]

فالأصل في الهوية كونها متشكلة من انتماءات متعددة نعيشها بوصفها كلا متكاملاً، ولا يحدث الاختزال إلا لحظة الشعور بالتهديد أو الخطر. في حين يرى فريق آخر أن الكتابة بلغة الآخر دليل انعتاق من الموروثات التي تثقل كاهل الأديب وتحرر من الرؤى التي تحصره داخل انتماءات ضيقة، كما أنها سمة للانفتاح وتقبل الآخر.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

في كل الأحوال يعكس خيار الكتابة بلغة الآخر تصورًا خاصًا للهوية والضغوط النفسية التي يحياها الأديب[4]، لذا يعدّها الكاتب أحيانا منفاه سواء بصورة اختيارية أو قسرية، فمثلاً يصف مالك حداد هذه اللغة بأنها مثّلت بالنسبة له "المنفى" حيث ظل ممزقًا بين ولائه للجزائر ذات الهوية العربية الأمازيغية والكتابة بلغة المستعمر، ليقرر لاحقًا الصمت كخيار وجودي بعد الاستقلال وكأنه بذلك يلغي عن هذه اللغة شرعية وجودها ويربطها بظرف تاريخي هو الاستعمار.

لقد استقرت اللغة الفرنسية في بلدان المغرب العربي وعززت من وجودها داخل النسيج المجتمعي لذا استمرت الكتابة بها حتى بعد انقضاء فترة الاحتلال لا كضرورة بل كخيار واع، فماذا مثّلت بالنسبة لآسيا جبار؟

1_اللغة الفرنسية بوصفها أداة للبوح:

عند الحديث عن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسيّة تبرز آسيا جبّار بوصفها الصوت النسائي الذي استمرّ عقودًا من الزمن منذ بدايات الثورة الجزائريّة.

ويعد توسّلها للغة الفرنسيّة بوصفها لغة للكتابة فعلاً محايداً في كتاباتها الأولى بالنظر إلى كونها اللغة الوحيدة التي تتقنها، إذ تقول: «هذه اللغة أصبحت أرضي الوحيدة، حتّى وإن خيّمتُ على هوامشها، وكأنني رحلت عاريّة من موطني، لقد مثّلت معطفي الوحيد»، وقد كان لوالدها الفضل في اكتسابها حين اختار لها ومنذ الصبا مزاولة تعليمها في المدرسة الفرنسيّة، لذا مثّلت بالنسبة لها لغة الأب، وفي المقابل ثمة لغة أخرى انزوت إلى الظل هي لغة الأم المنهزمة الحاملة للثقافة في بعدها الشفوي والتي تنفتح على فضاءات الحريم والذاكرة النسويّة، حيث تقول في رواية "الحب والفانتازيا" :«الفرنسيّة هي لسان زوجة الأب. ما هو اللِّسان الأم الضائع منذ زمن بعيد، والذي تخلّى عنّي واختفى؟ تثقلني المحرّمات الموروثة وأكتشف أنّني لا أملك ذاكرة من أغاني الحب العربيّة».

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

تحيل اللغة الفرنسيّة كذلك على البعد الاستعماري إذ تستدعي في الذاكرة عذابات الشعب الجزائري في مواجهة هذا العدو، لكنّها وفي الوقت ذاته تحرر المرأة من فضاء الحريم الضيق، حين تمكّنها من تعرية الواقع وكشف التابوهات في مجتمع تتعدد فيه مستويات الحجب.

تطرح مسألة اللغة إشكالية الهوية من بابها الأوسع، إذ شكلت هاجسا لدى العديد من الأدباء والمفكرين الذين وجدوا أنفسهم مشتتين بين ضفتين مختلفتين ليكون السؤال المطروح: هل يكون الانتماء الحقيقي للأرض أم للغة التي نبدع بها؟ بعبارة أخرى: ما الذي يحدث وما الذي يبقى حين نكتب داخل لغة الآخر، ألا يعد هذا فقدانا مضاعفا؟ في هذا الصدد نستحضر مقولة جاك دريداJacques Derrida: "نعم أنا لا أمتلك إلا لغة واحدة ومع ذلك فهي ليست لغتي"

إنّ الكتابة عند آسيا جبار هي سعي للانعتاق والتحرر وكسر جدران الصمت، وما كان ليتأتى لها ذلك لو أنها اختارت الكتابة باللغة العربية ذلك أنها حسب نظرها مثقلة بالتابوهات إذ "تعلل انحيازها للكتابة باللغة الفرنسية بأن الأصل العربي والإسلامي لا يمكن أن يوفر لها مقامًا دائمًا لأنّها تعتقد أن الإسلام يعتبر المرأة عابرة سبيل لا يجب ولا يحق لها أن تطالب بمقام دائم "[5]

لذا فقد كانت بحاجة للعبور إلى الضفة الأخرى لكسر القيد المفروض على النساء باسم الدين والموروثات الاجتماعية، ولتسجل وحشية الذاكرة الدموية التي خلفها المستعمر، الأمر الذي يجعلها تعيد تشكيل هويتها بين حقلين لغويين وثقافتين منفصلتين.

تغدو الهوية عند آسيا جبار مشروعا في طور التشكل يتأسس على مبدأ الاختلاف والتعدد، فاستيعاب الموروث الحضاري للمجتمع الجزائري يتطلب الحفر في الذاكرة الجماعية بأبعادها المختلفة الأمازيغية والعربية والفرنسية.

2_ العلاقة مع اللغة العربية بين القطيعة والحضور:

تعد الكتابة بلغة الآخر عند آسيا جبار عملية مزدوجة من التخفي والظهور، فمن ناحية ما كان لها أن تعرف هذا الرواج والانتشار على الصعيد العالمي لو أنها كتبت بالعربية ذات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

الصلة الوثيقة بالإسلام نظرا لتمركزها حول تقاليد وموروثات تبخس المرأة حقها ولكونها تشعر صاحبها بالمسؤولية تجاه ما يكتبه عن الإسلام بصفة خاصة، إذ تقول: "بديهي أنه بالنسبة لـ "بعيدا عن المدينة المنورة" أنني تمكنت من إعطاء حركية لنساء يعشن في فجر الذاكرة الإسلامية لأنه بفعل اللغة الخارجة عن الإسلام الآن، لغة محايدة منحتهن حركيتها وحريتها"(6).

فقد مكنتها القطيعة مع اللغة العربية واللجوء إلى لغة محايدة من التعامل بحرية مع تاريخها وكسر جدار الصمت المطبق على المرأة ورصد دورها في مسرح الأحداث.

تعود آسيا جبار إلى ما كتب حول أول حقبة من التاريخ الإسلامي فتقف عند حجم الظلم الذي تعرض له الحضور النسوي في صفحات المؤرخين، حيث مورس عليه الحجب بمختلف مستوياته بدوافع اجتماعية في أغلب الأحيان، فغابت الأسماء والأوصاف والأدوار الحقيقية التي جسدتها لتبقى مجرد خيالات باهتة تفتقد للفعالية والمبادرة لتحدث قلبًا للمتن التاريخي وتفكيكًا لبنياته المتمركزة حول النسق الذكوري فتعيد تأثيث صفحات التاريخ بما يتماشى مع رؤيتها المتمحورة حول إخراج المرأة من دائرة النسيان والتغييب وإحلالها المكانة التي لطالما كانت جديرة بها، وما كان ليتأتى لها ذلك دون مد جسور التواصل مع لغة الآخر واستحضار عنصر الخيال.

تغدو الفرنسية في هذه الحالة وسيلة لكشف خبايا الذات وإتمام الجزء المفقود من الصورة، فنحن بحاجة أحيانا إلى إحداث قطيعة مع أنفسنا وترك مسافة معها حتى نراها وندركها بشكل أفضل، وفي هذا الصدد تقول الكاتبة: "لم أكن لأجد ذاتي إلا في قطيعة البنيات، في المواجهة بين "الأضداد"(7).

تنضوي هذه الرواية ضمن ما يسمى بالأدب الاستعجالي ذلك أنها كانت وليدة ظرف عصيب في تاريخ الجزائر الحديث دفع الكاتبة إلى التوقف عن كتابة رواية "واسع هو السجن" كي تلتزم بدورها التاريخي كمثقف في مواجهة ما تعتقد أنه تهديد صارخ لمستقبل البلاد وإيذان بسلب المرأة أهم حقوقها.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

فبعد أحداث أكتوبر 1988 شهدت البلاد صعودا للتيار الإسلامي في ظل تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ما أكسب هؤلاء تعاطفًا في ظل تصاعد موجة الغضب ضد سياسات القمع وتفاقم الأزمة.

تبنى هذا الاتجاه المرجعية الدينية محاولاً فرض تصورات صارمة حول العديد من القضايا الإشكالية ومثّلت الفترة الإسلامية الأولى الأنموذج الذي يسعى لبعثه من جديد. وزاد من خطورة الموقف دخوله معترك الحياة السياسية وتنامي شعبيته. في ظل هذا السياق قررت آسيا جبار الشروع في كتابة رواية بعيدا عن المدينة كتعبير عن رفضها ومقاومتها للتصور الراديكالي حول الإسلام، فهي بذلك تدق ناقوس الخطر لتحذير الجزائريين قبل دخول نفق العنف والاقتتال.

لقد استدعى هذا العمل سنتين من الصمت والتنقيب بين كتب المؤرخين لفهم ما يحدث ومن ثمّة بلورة خطاب باستخدام الآليات ذاتها التي تبناها الإسلاميون لإبطال مزاعمهم في محاولة لبث الوعي في أذهان الشباب.

صدرت الرواية عن دار نشر فرنسية سنة 1991 بشكل متزامن في كل من فرنسا والجزائر وهذا ما يفترض وجود أفقين مختلفين من التلقي نتيجة اختلاف المرجعية الثقافية لكل جمهور.

لعلّ كتابة النص باللغة الفرنسية وصدوره عن دار نشر أجنبية يضمنان تلقيه بشكل أكبر من قبل المتلقي الغربي خاصة إذا علمنا أن موضوع المرأة من المواضيع الإشكالية التي يستغلها الإعلام الغربي عادة ويتعاطى معها لتسويق صورة نمطية مشوهة عن الإسلام، وعليه فإن الكاتبة تحاول التأسيس لرؤية أكثر موضوعية مستندة على مرجعية تاريخية نافية أن يكون الإسلام مرادفًا للتطرف وذلك من خلال رصد طبيعة علاقة الرسول عليه الصلاة والسلام بالنساء.

من ناحية أخرى تشكل المرجعية التاريخية عقبة أمام فهم المتلقي الغربي للنص نظراً لكونه ينحدر من محيط ثقافي مختلف لهذا نجد أن الكاتبة قد ضمنت عملها العديد من الهوامش لتوضيح دلالة بعض المفاهيم والمصطلحات الدينية، من ذلك ما ورد في الصفحة 61 من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

الرواية حيث تشرح الكاتبة مصطلحا الحديث والسيرة، إضافة إلى شرح مفهوم البيعة في الصفحة 76 من الرواية.

ليس هذا فحسب بل نجد أنها أرفقت هذا العمل بقائمة تتضمن أبرز الشخصيات التي ورد ذكرها بدءًا بأمهات المؤمنين وصولاً إلى الصحابة والمهاجرين، مع إدراج بعض التوضيحات فيما يخص كل شخصية[8] وكأنها تهدف من خلال ذلك لدفع قارئها المتخصص إلى التعمق في المسائل التاريخية وتوسيع دائرة البحث قصد التأسيس لوعي جديد.

أمّا إذا عدنا إلى سياق تلقي الرواية في الجزائر فإننا نجد أنّ هناك ثلاثة مستويات من التلقي.

يأتي التلقي الأكاديمي في المستوى الأول ذلك أن كتابة الرواية باللغة الفرنسية تفترض قارئا متمكنا من اللغة فضلا عن امتلاكه لمستوى ثقافي يؤهله لعقد حوار مع المحتوى المقدم، كما أنّ مناقشة مثل هذه الأفكار ما كان ليتم سوى في فضاء رحب تسوده الروح العلمية وتقبل الآخر المختلف.

في المستوى الثاني تبرز المرأة بوصفها المعني الحقيقي بالرسالة التي تسعى الكاتبة إلى توجيهها خاصة إذا علمنا أن شريحة كبيرة من النساء قد تبنت التصور الذي قدمه الإسلاميون، فبدا أن الخطوة الأولى تقتضي توعية المرأة بحقيقة وضعها التاريخي.

أمّا المستوى الأخير فنرى أن الكاتبة توجّه خطابها إلى الإسلاميين كمحاولة لدحض تصوراتهم من داخل المرجعية التي يتبنونها، إذ عملت على استحضار جوانب أخرى من المصادر التي يعتمدونها كمرجعية يتأسس عليها مشروعهم لإبراز العديد من المحطات الضبابية في تاريخ المسلمين كاشفة عن تضارب المؤرخين حولها، من ذلك مسألة الانقسام حول الخلافة التي أدت لاحقًا إلى انقسام سني شيعي، مشيرة في مقام آخر إلى وقعة كربلاء في تبنّ واضح لبعض التصورات الشيعية حول ما جرى بين الصحابة.

تكتب آسيا جبّار عن ماض عربي بلغة الآخر حتى تحرره من القيود التي فرضتها اللغة العربية بحكم أنها محاطة بالمقدس، خاصة إذا علمنا أنّ ذلك الماضي قد ضمّ بين صفحاته عناصر مختلفة عقديًا (مسلمون، مشركون، يهود، مسيحيون) كما أن تعامل المؤرخ مع هذه الفترة لم يكن محايدًا بحكم أنّه مثّل جزءا من النظام السائد سواء على الصعيد الاجتماعي أو الديني،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

وتحاول من ناحية أخرى تقديم صورة للأنا بعيدا عن الغرائبية والتحيّز الذي ميّز كتابات الآخر عنها.

3_ الآخر بوصفه الجانب المرآوي للذات:

تقول جوليا كرستيفاJulia Kristeva في كتابها (غرباء عن أنفسنا): "الآخر يسكننا، إنّه الوجه الخفي الذي يمثل هويتنا" تماشيًا مع هذه الرؤيا تقدم الرواية الفرانكفونية والمغاربية بصورة خاصة أبعادًا جديدة للعلاقة مع الآخر الذي يستحضر في كثير من الأحيان وفق تصور مسبق محاطًا بخلفية الماضي الاستعماري المثقل بالمآسي والجراح.

تختار آسيا جبّار معالجة هذا الموضوع في رواية "ليالي ستراسبورغ"، وإن كنّا نجد صدى العلاقة بين الأنا والآخر بمختلف مستوياته حاضرا في كل أعمالها. لم يكن اختيار هذه المدينة كمسرح للأحداث محايدًا، فموقعها الجغرافي فضلاً عن تاريخها جعلا منها ملتقى تتقاطع فيه الثقافات والانتماءات المختلفة، إذ مثّلت منطقة عبور بين العالم اللاتيني والجرماني كما ظلّ انتماؤها ممزقًا بين فرنسا وألمانيا حتى أواخر الحرب العالمية الثانية.

كان لهذه المدينة الأثر البالغ في تشكيل هذا العمل سواء من ناحية خصوصية المكان أو التاريخ أو اللغة، إذ تغوص الكاتبة في مقدمة الرواية في تفاصيل تاريخية عن ماضي المدينة تحديدا سنة 1939 بعد أن تمّ اجتياحها من قبل القوات الألمانية أيام الحرب العالمية الثانية متنقلة بين محطات عديدة مستعينة بعنصر الخيال لرسم عوالم العديد من الشخصيات التي عبرت من هنا سواء الأميرات الفرنسيات أو مشاهير الكتاب إضافة إلى المهاجرين المسلمين لاحقًا.

يتمحور هدف الكاتبة في الجمع بين شخصيات من مرجعيات ثقافية ودينية ولغوية مختلفة في إطار علاقات ثنائية مسكونة بهاجس البحث عن الذات وتأسيس علاقة مع الآخر والماضي بشكل يتجاوز السلطة التي يفرضها التاريخ ويستبدله بسلطة الحب والتسامح، فمن ناحية تدخل البطلة "ثلجة" ذات الأصول الجزائرية في علاقة عابرة مع "فرانسوا" الفرنسي بعد أن جاءت إلى باريس قصد إعداد بحث تاريخي عن أحد الأديرة خلال فترة القرون الوسطى تاركةً

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

خلفها زوجًا وابنا كان يفترض بهما أن يجذرا ارتباطها بالوطن، لكن هاجس الارتحال لديها كان أقوى من أي رابط.

كما تعرض الكاتبة قصة "إيف" صديقة طفولتها ذات الأصول اليهودية وتحديدًا السفارادية التي تقع في حب "هانس" الألماني بعد أن انفصلت عن زوجها وأبنائها متجاوزة العداء التاريخي بين القوميتين لكن حساسية اللغة وعلاقتها بمحيطها الخاص تضع العلاقة بينهما على المحك.

هناك أيضا قصة "إرما" اليهودية التي تدخل في علاقة حب مع "كارل" الذي ينحدر من "الألزاس" وتحديدا من الأقدام السوداء، لكن جهل إرما بحقيقة أهلها يعقّد العلاقة بينهما خاصة مع رفض والدتها التواصل معها بعد أن تمكنت من العثور عليها، بالإضافة إلى قصص أخرى يجمع بينها قاسم مشترك هو التعدد الثقافي والاختلاف في الهويّة.

يطرح هذا المنحى العديد من التساؤلات حول مدى قدرة الروائية على تحرير أبطالها من الشعور بالذنب تجاه ماضيهم وخلق عالم يسوده التسامح حيث يفسح التاريخ مكانه لحب الآخر، ومن ناحية أخرى في إطار أية لغة بني التواصل بين الشخصيات؟

يتجلى سؤال الهوية في الرواية من خلال التوظيف المكثّف لضمير الأنا ومع ذلك هي أنا غير معرّفة وواضحة بشكل نهائي فعلى امتداد الرواية تسعى الذات لاكتشاف خباياها في حركة ذهاب وإياب مستمر بين الهنا والهناك، بين الماضي والحاضر، بين التاريخي والآني. ويبرز استحضار الذاكرة في كل لقاء مع الآخر كآلية دفاعية للحفاظ على الهوية الشخصية، لذا يغدو حضور الآخر عاملاً مزعزعًا لاستقرار التصور حول الأنا ما يجعل الشخصية مغتربة عن ذاتها.

تعكس شخصية البطلة (ثلجة) جانبان من جوانب الهوية، يتعلق الأول بالهوية الجماعية (الثقافة واللغة) ويتعلق الجانب الثاني بالهوية الشخصية التي تبدو متغيرة وفي طور التشكل عبر مد جسور التواصل بين ضفتين مختلفتين، بعبارة أخرى تشكّل هذه الهويّة مرهون بعلاقتها مع الآخر فالآخرية تفترض الهوية أو كما يقول مارك أوجي: "دائما تصورنا حول الأخرية هو الذي يسبق ويسمح بتعريف الهوية"[9].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

تمّ التواصل بين الشخصيات عبر عدة وسائط كفل كل منها ردم الهوّة وإحداث التقارب بين الذات والآخر، وقد مثّلت اللغة أحد أبرزها فمثلاً يبدي فرانسوا اهتمامًا بمعرفة معنى اسم حبيبته محاولاً تكرار وقع صداه في لغتها الأم (العربية)، إذ يقول في أحد المقاطع معبرًا عن لهيب الحب الذي يضطرم داخله: "أوو ..ثلجة أيتها المرأة المتوهجة التي تحرقني "، ورغم أنّ ثلجة تكنّ لحبيبها المشاعر ذاتها إلاّ أنها تبقى محاصرة بشعور المذنب تجاه تاريخ أجدادها وثقافتها ما يجعل هذا الآخر حاضرًا في تصوراتها دائمًا بوصفه "الغريب" العدو الفرنسي، حتى أنّها تحجم عن ذكره باسمه أمام صديقتها كي لا تحيي بداخلها الذكريات المؤلمة، إذ تقول في أحد المقاطع: "لأنني أمضي لياليّ مع رجل، مع غريب، أنت حبيبي وأنت فرنسي ..."[10].

في المقابل يكون وقع الازدواجية الثقافية واللغوية أشدّ قسوة على شخصية إيف اليهودية حيث تقول "أنا في الجحيم والجنّة " إذ يمثل كل منهما المعادل الموضوعي للذاكرة والعلاقة العاطفية التي تحياها، يظل الماضي عنصرًا مؤرقاً فقد قُتل أهلها على أيدي الألمان خلال الحرب العالمية الثانية وهي إذ توافق على استمرار علاقتها بهانس والإنجاب له تشترط عليه ألّا يتكلم اللغة الألمانية مطلَقا وأن تخضع ابنها لاحقًا لعملية الختان، أمام هذا الموقف يحاول هانس احتواء الموقف باللجوء إلى وسيط لغوي آخر هو اللهجة العربية (اللسان الأم لإيف) أحيانًا والإنجليزية أحيانًا أخرى لكونها لغة محايدة فبعد أن أثارته مسألة الختان نجده يرد عليها باقتباس حديث للمسيح "هل تريدين صفعي على الخد الآخر الآن؟" ندرك من خلال ذلك أنّ الكاتبة تسعى للتأكيد على أنّ جوّ التسامح هو الضامن الوحيد لاستمرار العلاقة بين الأنا والآخر والخروج من عنق الزجاجة.

تشترك التجربتان في كون المرأة هي الطرف الذي يعاني هذا الصراع الداخلي في حين يسعى الرجل(المختلف) لاحتوائها ودرء الصدع الذي خلّفه الماضي الدموي (الاستعمار الفرنسي بالنسبة لثلجة والحرب العالمية الثانية بالنسبة لإيف) وهو ما يجعل هذه الرواية تندرج ضمن إطار الأدب النسوي.

تستدعي الكاتبة لغة أخرى لتجاوز العقبات بين الأطراف المختلفة وضمان استمرار الحب بينهم وهي لغة الجسد حيث تسقط كل الفوارق معلنة عن ميلاد ذوات جديدة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

لقد أثبتت آسيا جبّار من خلال هذا العمل أنّ الحب يمكن أن يثمر بين أعداء الماضي وينتصر على المآسي والذكريات الدموية إن أمكن خلق عوالم خاصة تسودها الثقة والتسامح، ولا يمكن حصول ذلك دون الإيمان بالتعدد والاختلاف مع ضرورة تجاوز بعض الخطوط الحمراء وإحداث القطيعة مع الماضي.

4_ آسيا جبار بين المحلية والعالمية:

تعتبر آسيا جبار كاتبة بهويات متعددة تكتب بحسّ استعجالي عمّا يحدث في وطنها، اختارت اللغة الفرنسيّة لإخراج بنات جنسها من دائرة الصمت، فعالجت كل القضايا التي تقض مضاجعهن خلال فترة الاحتلال الفرنسي وظلّ تعطشها للكتابة حافزًا يدفعها للارتواء من التاريخ والتراث الشفوي.

كما دفعها هاجس البحث عن الحقيقة إلى الارتحال ودخول عوالم التاريخ والذاكرة والتراث فأحيت تفاصيل مغيّبة وخلقت عوالم جديدة شكّل عنصر الخيال اللبنة الأساسية لتأسيسها.

حاصرتها أصوات الماضي فراحت تصغي إليها باهتمام وتسجلها باحترافية حتى غدت أعمالها لوحة بانورامية يلتقي فيها عبق الماضي بالحاضر، كما أضفت لغتها الفرنسية الشفّافة لمسة شعرية على كتاباتها فانتقلت بين الرواية والمسرح والشعر والعمل السينمائي وكسرت الحدود بين كل الأنواع والأجناس الأدبية.

دخلت آسيا جبار قلعة الأكاديمية الفرنسية واستطاعت أن تخلّد اسمها بين كبار الكتّاب نظرًا لما أحدثته من تجديد في اللغة ولما يحمله أدبها من رسالة إنسانية ساميّة، كما تحصّلت على عدّة جوائز عالميّة وترجمت أعمالها للعديد من اللغات، وأدرج اسمها ضمن قائمة المرشحين لنيل جائزة نوبل في أكثر من مناسبة فحققت بذلك مكانة عالميّة رغم كونها بقيت مجهولة ومحدودة الانتشار في الجزائر التي لم تفارقها في كل كتاباتها لأسباب مجهولة، فلم تترجم أعمالها إلى اللغة العربية التي تنتمي إليها ولم تحظ بالاهتمام الذي لطالما كانت جديرة به، لذا ينطبق عليها المثل القائل :"كل نبيّ منبوذ في قومه"، ولعل هذه سمة قد ميّزت العديد من الآثار الأدبية العربية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583

التي لم يحتف بها في وقتها إلاّ بعد أن لاقت الرواج والاهتمام من طرف الآخر. وعليه يبدو المسار عكسيًا فعالمية هذا الأدب هي الضامن لانتشاره على الصعيد المحلي وليس العكس.

الهوامش:

1-عبد السلام المسدي: **الهوية العربية والأمن اللغوي دراسة وتوثيق**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت،ط1، 2014.ص81.

2-Nizar ben saad: **Ecrire dans La Langue de l'Autre : Risques et Enjeux**, revue de littérature comparée2008/3 (n 327), p291.

3- أمين معلوف: **الهويات القاتلة** ،تر:نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع،سورية، ط1، 1999.ص16.

4-Samia boubakour: **Des Rives et des Langues:Identités et Appartenances chez des Auteurs Francophones,** synergies Algérie n17-2012.p 134.

5- خديجة حامي: **ازدواجية اللغة والثقافة في روايات آسيا جبار قراءة في كتاب الأصوات التي تأسرني**، أشغال الملتقى الدولي الثامن حول تجربة الكتابة عند آسيا جبار 09-10-11نوفمبر2013، مجلة الخطاب، العدد16، تيزي وزو الجزائر.ص110.

6- Assiadjebar: **Ces Voix qui m'assieges**,Albin Michel,1999.p52.

7- حوار مع آسيا جبار أجرته آليات أرمل ،تر: حكيم ميلود ،مجلة نزوى

http://www.nizwa.com/articles.php.id=2987.

8- Assiadjebar: **Loin de médine**,Albin Michel,1991.p307.

9- Samir messaoudi: **Construction Identitaire dans les Nuits de Strasbourg d'Assia Djebar,** synergies Algérie n16-2012.p112.

10- Assia Djebar: **Les Nuits de Strasbourg**,op.cit.p53.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/583